ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على دخول الإسلام في إفريقيا

المؤتمر الدولي

الإسلام في إفريقيا

26-27 نوفمبر 2006

6-7 ذو القعدة 1427 هـ

جامعة إفريقيا العالمية

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا

وزارة الارشاد والاوقاف

سفارة الاسلام الأولى المغزى والمنطلق

د.جعفر ميرغنى

مدير معهد حضارة السودان

في يوم صائف من السنة التاسعة قبل الهجرة " 614 ميلادية " وصلوا ساحل البحر قادمين من مكة أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ما بين ماشٍ وراكب ، فاستأجروا سفينة بنصف دينار أقلتهم إلى الحبشة . كانت تلك بداية التحرك الذي عرف في كتب السير والتواريخ باسم " هجرة الحبشة " الذي على كثرة متناوليه من النقلة والدارسين ظلّ في الغالب حبيس الرؤية التبعيضية للأمور التي أطّر معالمها صاحب السيرة محمد بن اسحق – رحمه الله– في عبارته القاطعة :" فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .. " .

تلك العبارة على صدق ما فيها من أن الخروج إلى الحبشة جاء في ظرف لقيت فيه القلة يومئذ من المسلمين عنتاً وأذى من أهل مكة بالغاً ، لا تفي في نظرنا بالإجابة عن التساؤل وراء العلة الحقيقية للخروج لكنّها أثارت من التساؤل ماكان أكثر تعقيداً وقد فتحت بحمد الله باباً للنظر كان من نتاجه ما نسرده تفصيلاً في هذا المقال .

أول ما نتساءل عنه إن كان خروج من خرج بسبب استضعاف المشركين للمسلمين وأذاهم فإن من خرج يومئذ إلى الحبشة جعفر بن أبي طالب الذي كان أبوه فيم ذكر أبن اسحق هو حامي النبي " صلى الله عليه وسلم " من أذى قريش ، بينما بقي أخوه علي في مكة فيعسر على الفهم قبول انطباق العلة التي يراها صاحب السيرة على جعفر . وقد خرج من خرج من نظراء جعفر ناس من ذوي الشرف والمكانة في المجتمع المكي كعثمان بن عفّان وزوجته رقية بنت رسول

الله " صلى الله عليه وسلم " بينما تخلّف عن ذلك الخروج أشدّ أصحاب النبي يومئذ تعرضاً للأذى وأقلّهم ناصراً وعدداً من أمثال بلال وخباب وصهيب وعمار الذي شكك ابن اسحق في خروجه .

ثمّ إن كان الخروج بسبب أذى المشركين وحده فلم ظلّ عدد غير قليل من المهاجرين بالحبشة بعد ما فتح الله على نبيه وأصحابه بالهجرة إلى المدينة وبعدما نصروا نصراً مؤزراً في بدر ؟ وقد ظلوا فيها فلم يعودوا إلاّ في السنة السابعة بعد الهجرة . ماذا وراء بقائهم بالحبشة تلك السنين "14" عاماً هذا ما تقصر دونه الإجابة القاطعة التي ظلّ يتناقلها غير واحد ممن تناولوا هذا الحديث الهام .

يعرف من يعاني كتابة التاريخ أنه مهما بالغ في التقصي ودقق في التحري فإنه لن يفي إلاّ بتصوير بعض ما مضى من الوقائع التي يكتب عنها . ذلك أن تلك الوقائع بعض النشاط البشري المعقد الذي لا يكاد يحيط بعلله من عايشه وشهد كل تفاصيله ، فكيف بمن لا سبيل إليه إلاّ بعض المرويات فربما كانت العلة وراء نشاط ما ، راجعة لحسابات قد تتجاوز بأبعادها الحدود الجغرافية للحدث ضاقت تلك الحدود أم اتسعت . والرواية عن الوقائع شيء والتحليل بالنظر والتعليل شئ آخر وكلاهما خاضع للدرس والتمحيص على أساس المنهج العلمي . فالذي نختاره ونراه أوفق من مناهج البحث في هذا الأمر هو محاولة إعادة صياغة الحدث لا في محيطه المكاني الضيق من مكة وإقليمها ، بل في طول ما يتصل به في المحيط العالمي وعرضه فرب تصرف ببطن مكة كان الباعث إليه حدث وقع في الشام أو في فأس أو مصر أو ما شاء الله من أقطار الأرض النائية فلا بد من تفقد ذلك . ورب تحرك اليوم قصد به استباق ما يتوقع حدوثه في المستقبل القريب أو البعيد .

وقد جاءت الدعوة الإسلامية عالمية من يومها كما يشهد به القرآن الذي نزل لتلك الأيام الأولى السابقة لتحرك المسلمين إلى الحبشة كما في الاية " 84" من سورة الأنبياء :" وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين " والآية "28" من سورة سبأ " وما أرسلناك إلاّ كافة الناس ... " والآية "158" من سورة الأعراف :" قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً .. " إلى قوله :" فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ..." فكانت أمية الرسالة المنصوص عليها في مثل أولئك الآيات وخطاب القرآن المكي لأول نزوله لغير المكيين من أهل الكتاب مع ما أوردناه من تساؤل ترتب على رؤية صاحب السيرة رحمه الله هو الباعث لتلمس العلة وراء ذلك التحرك الذي عرف باسم هجرة الحبشة وراء الحدود الجغرافية الضيقة التي التمست فيها العلة من قبل وإن كنا نأخذ في حساب ما أورده صاحب السيرة رواية من نيل المكيين للمسلمين بالأذى لأول الدعوة . وحملهم إياهم على الخروج . على أنه من تفقد المناسبات العالمية للظرف الذي وقعت فيه الهجرة قد يتبين أنها تضمنت سفارة لا أعلم في التاريخ الدبلوماسي القريب والبعيد بسفارة كانت أبلغ نجحاً وأسع أثراً في بعدي الزمان والمكان منها. فقد كانت أولى خطى التنفيذ من تلك الاستراتيجية العبقرية التي أتاحت وفي أمد وجيز للأمة الاسلامية النامية التحكم في مقاليد السياسة العالمية وأورثتهم مشارق الأرض ومغاربها ههنا يكمن المفتاح لفهم السيرة بأسرها .

التاريخ الحاسم وبيئة الحدث :

من بين كل الوقائع للعهد المكي من حياة الرسول " صلى الله عليه وسلم " يحفظ أصحاب السير لها ولحسن الحظ التاريخ الدقيق لخروج أولئك النفر من مكة إلى أرض الحبشة ، فقد جاءت جميع وقائع العهد المكي في الغالب دون تاريخ وأكتفى أصحاب السير بذكر تعاقبها إلاّ انهم ههنا كانوا قاطعين فقد روى الواقدي صاحب المغازي أن خروجهم كان في رجب سنة خمس من البعثة . وكذلك كتبه ابن سعد في كتابة " الطبقات الكبرى " ويذهب ابن الأثير صاحب " الكامل في التاريخ "

شوطاً أبعد في التدقيق والتحري إذ يقول :" وكان مسيرهم في رجب سنة خمس من النبوة وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة ".

هذا التاريخ الحاسم الدقيق يوافق وقوع حدث عالمي جلل لذلك العهد أشار إليه القرآن في سورة الروم " الآيتان 2،3" :" غلبت الروم في أدنى الرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون .." فإن المفسرين يذكرون أن المراد "بأدنى الأرض " .. الذي هزمت هنا هو بيت المقدس في فلسطين . وقد وجدنا بمراجعة مدونات التواريخ الرومية وغيرها لذلك العهد أن غلبة الفرس الروم في فلسطين كانت في 614 للميلاد إذ في نهاية عام 613 للميلاد عبر القائد الفارس شاهيراز من لبنان إلى السواحل الفلسطينية حيث سيطر على جميع المدائن والقرى؛ وإذ تختلف المصادر في أمر بيت القدس نجد المصادر المعاصرة للحدث تعطينا عام 614م . بينما تذهب المصادر المتأخرة نسبياً إلى أنه كان في عام 615م ، أمّا بالنسبة للشهر فإن المصادر المعاصرة " وفيهم من كان شاهد عيان لحصار القدس من قبل الفرس "تختلف في ما بينها ، لكن نستطيع على كل حال ان نقول إنه في ما بين أواخر أبريل وأواخر مايو في عام 614م نصب شاهيراز آلات الرمي حول سورها وأحكم حصار بيت المقدس التي كانت في يد الروم وحيت دخلوها يروي الرواة أن الفرس قتلوا من الروم وأوليائهم ما بين العشرة إلى العشرين ألف نفس وتبالغ بعض المصادر فترتفع بعدد القتلى إلى أربعة وثلاثين بل إلى تسعين ألفاً ويعتقد أنهم احرقوا نحو ثلاثمائة خلوة " Monastery" وبيعة بما فيها كنيسة القيامة والمجمع .

تلك الأرقام تكشف مدى الهزيمة الساحقة التي لحقت بالروم في القدس التي كانت واحدة فقط من ساحات الحرب الضروس بين فارس والروم . وكان من حديث تلك الحرب أن كسرى ابرويز ملك فارس متذرعاً بدعوى انتقام لصهره "مورق" قيصر الروم حمل على بلادهم حملة ضارية وأوقد حرباً ضروساً استمرت لنحو عشرين عاماً دون انقطاع .

حرب هي بمقاييس اليوم عالمية فقد شملت بعيدانها المشارق والمغارب وتواجهت جيوش الامبراطوريتين الفارسية والرومية التي في ارمينيا وآسيا الصغرى ، والجزيرة وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والبلقان وذلك تأويل الآية في سورة الروم "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس " فقد كانت المعارك برية وبحرية ألحقت بالأرض فساداً كبيراً أهلكت الحرث والنسل .

كان الفرس يومها يسيطرون على اليمن وسائر سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية إلى العراق والبحرين " المنطقة الشرقية في المملكة السعودية اليوم " وبانتصارهم على الروم في الشام كله أصبحوا محدقين بجزيرة العرب في شمالها وشرقها وغربها لم يخرج عن أيديهم إلاّ الحجاز وبعض نجد . وكانت بداية الحرب متزامنة مع مبعث الرسول " صلى الله عليه وسلم " . وبلغت أشدها وظهر فيها الفرس على الروم ظهوراً شاهقاً في حيت بلغ تنكر المكيين للدعوة الاسلامية النامية أشده .

وجلي مما في سورة الروم أن الحدث – حدث غلبة الروم على أدنى الأرض منزلة من الحجاز شغل بال المسلمين كثيراً كيف لا وفيه سورة كاملة في القرآن تتلى وتدرس ولكي نفهم الأبعاد الحقيقية لفكر المسلمين في تقويم الموقف للعالم العربي ناساً وأرضاً وموقع جميع ذلك في حساباتهم الاستراتيجية ومن وراء العرب إفريقيا الشمالية والشرقية أو ما يعرف اليوم بدول القرن الإفريقي .
لم تكن هذه المواجهة هي الأولى بين الدولتين الفارسية والرومية بل قامت الحرب بينهما في حديث يطول سرده ويضيق عنه باع المجال المتاح لكن قبل هذه الجولة الساخنة بين كسرى ابرويز وهرقل كانت جولة ساخنة بين جستنيان قيصر الروم وكسرى انو شروان .. وفي أخبارها ما يفيد في معرفة مشاعر الفرس تجاه أي تحرك عربي وفزعهم من كل وحدة تجمع كلمة العرب

دور فارس والروم فى المنطقة

_أصبح الفرس إثر غلبتهم الروم في فلسطين والشام كله محدقين بجزيرة العرب في شمالها وشرقها . فقد كانت بلاد البحرين –" المنطقة الشرقية في المملكة السعودية اليوم " خاضعة خاضعة لنفوذهم وكذلك بلاد اليمن التي كانوا انتزعوها من يد الحبشة من قبل . فلم يبقَ حرّاً من جزيرة العرب إلاّ الحجاز وأطراف نجد وهي مساكن الكثرة من مساكن معد بن عدنان . وكان وضع هذه القبائل وديارها مما يشغل الفكر الاستراتيجي للفرس والروم كليهما . كان الروم يسعون جاهدين طيلة العقود من الزمان التي سبقت ظهور الدعوة الاسلامية إلى توحيد قبائل معد بن عدنان تحت إمرة رجل واحد موالٍ لهم أو هو على الأقل معادٍ للفرس .

يحدثنا الكاتب العسكري الروماني بروكوبي " PROCOPIUS " من أبناء القرن السادس الميلادي وصاحب كتاب " HISTORY OF THE WARS " "(تاريخ الحروب الرومانية الفارسية) أن جستنيان إمبراطور الروم حاول منذ أواخر الربع الأول من القرن السادس للميلاد أن يلحق الأذى بخصومه الفرس باستقلال أمتين هما حمير والحبشة . ولكي تكون الصورة واضحة والمخطط مفهوماً يعطينا بركوبي تلخيصاً لوضع تينك الأمتين : حمير والحبشة على تلك الأيام هو في جملة موجزة ما يلي : (كان ملك اليمن المسمى دمانيوس _ DUMANIUS _ " وهو ذو نواس في المصادر العربية " قد أجمع في عداوة الروم مما جعله يهاجم كل سفينة تجارية رومية تبحر في البحر الأحمر متذرعاً في ذلك بأن الروم يضطهدون اليهود في جهات حوض البحر الأبيض المتوسط وكان ذو نواس قد تهود . وكان لذلك شديد البطش بالنصارى في بلده وهو صاحب الواقعة الشهيرة بنجران التي فتك فيها بالنصارى هناك فتكاً. فكان من نتاج تدابير ذي نواس أن تعطلت تجارة البحر الأحمر لأنها كانت تنتهي يومذاك إلى أسواق الروم المسيطرين على مصر وعلى مداخل البحر الأحمر

الشمالية في فلسطين . لحق الضرر الاقتصادي أسواق الحبشة فكتب ملك الحبشة إلى ذي نواس محتجاً على سياسته تجاه الروم مبيناً ما ترتب عليها من ضرر بتجارة الحبشة في البحر الأحمر ومهدداً بأنه لن يقف مكتوف اليدين إذا استمرّ ذو نواس في اتباع سياسة تلحق الضرر بالمصالح الحبشية . وعند ما استمر في مواقفه تجاه الروم وتجاه النصارى ممن كان باليمن أو جاء مبحراً لموانيها وموانئ الحبشة وجنوب البحر الأحمر لم يجد النجاشي ملك الحبشة بداً من إعلان الحرب على ملك اليمن ذي نواس.على أية لما تلبس بالحرب أعلن أنه يحارب أيضاً لمناصرة النصارى المستضعفين باليمن وأنه إن انتصر في حربه تلك فسيعتنق النصرانية .

عبر النجاشي _ واسمه كلب _ إلى السواحل اليمنية وحقق نصراً مبيناً على قوات ذي نواس آخر الربع الأول من القرن السادس للميلاد "حوالي 525م " غير أن النجاشي لم يضم اليمن إلى أملاكه عقب هذه الجولة الأولى واكتفى بأن نصب على اليمن ملكاً حميرياً نصرانياً يدعى " سميفع " .

هيأ ذلك الوضع المترتب على انتصار الحبشة على اليمن وإعلان الملكين الحبشي واليمني ولائهما للنصرانية لجستنيان امبراطور الروم أن يبعث بسفرائه إلى سميفع ملك اليمن الجديد وإلى كلب نجاشي الحبشة شارحاً خطته المؤلفة من قسمين قسم ينفذه ملك الحبشة والآخر ينفذه ملك اليمن . طلب من ملك الحبشة أن يشتري الإثيوبيين الحرير وسائر السلع الهندية من الهند ثمّ يجلبوها إلى أسواق الروم بمصر عبر البحر الأحمر وبذلك تحقق الحبشة أرباحاً كبيرة بينما يضمن الروم أن لا تذهب أموالهم إلى أعدائهم من الفرس الذين كانوا حتى ذلك الوقت الموردين الرئيسيين للسلع الهندية عبر طريقهم البري وعبر الخليج الذي كان يسيطر عليه ولاتهم بالبحرين وأولياؤهم من ملوك الحيرة .

أما سميفع ملك اليمن فكان الطلب الموجه إليه من قبل امبراطور الروم يتلخص في أن يساعد ملك حمير رجلاً بعينه ليصبح ملكاً على قبائل معد بن

عدنان ذلكم الرجل هو الأمير والشاعر المعروف في المصادر العربية أمرؤ القيس بن حجر . وكان امرؤ القيس على ما يصف بروكوبي " PROCOPIUS " رجلاً قديراً جداً . وكان جستنيان يرى في حساباته الاستراتيجية أن تلك القبائل _ قبائل معد بن عدنان _ إن توحدت تحت إمرة رجل واحد فإنها قد تسدد للفرس ضربة موجعة وهي بلا شك رؤيا قائد محنك تنبأ بها. ونبوءة منه صادقة فإن هذه القبائل لما توحدت بالدعوة الاسلامية بعد قرن من دعوة جستنيان تلك ، لم يقتصر أثرها على فارس في مجرد إلحاق الأذى بمصالحها ، بل أزالت الإمبرطورية الفارسية ذات التاريخ المديد المجيد من الوجود نهئياً .

لم تحظ خطة جستنيان بالقبول عند الملكين كليهما نجاشي الحبشة كلب وسميفع ملك اليمن. وما كانت خطة رومية لتستفزهما ، فالروم في النهاية كانوا يمثلون عنصر تهديد للمصالح اليمنية والحبشية كدولة عظمى ذات مطامع في البحر الأحمر وفي وادي النيل يطول شرحها الحديث جداً حتى لا يتسع له الحيز المتاح ههنا .

هذا من وجه ومن وجه آخر كانت مسايرة الروم في خططها تعني انحيازاً إلى واحدة من قوتين عظيمتين بينهما الحرب باردة وساخنة مستمرة أبداً مما يجلب غضب فارس ويحملها على وضع التدابير التي تحمي مصالحها وتهئ لأمتها . وكان في مقدور الأساطيل الفارسية في المحيط الهندي أن تبلغ أرض اليمن وأرض الحبشة والتاريخ يحدثنا باحتلالهم لليمن حين رأوا أن يحتلوه وبغزوهم لميناء الحبشة في نواحي جزائر دهلك حين راوا ذلك في مصلحتهم .

بالنظر للأمور في هذين الوجهين كليهما ومن قبل أن الحبشة كانت ترى موقعها في إفريقيا كلها كموقع فارس في آسيا وكموقع الروم في أوربا ، وأنها بذلك قطب ثالث في تنازع القوى العالمية يومذاك لا يقل خطراً عن أي من القطبين الآخرين ، نستطيع أن ندرك لِم تتصّل الملكان كلاهما كلب وسميفع من

مشايعة جستنيان امبراطور الروم على خططه الرامية للإيقاع بالدولة الفارسية . أمّا النجاشي فإنه تعلل ب في طعنه في صلاحية خطة جستنيان بأن الفرس أقرب داراً من الهند وأكثر سفناً وانّهم يستطيعون أن يشتروا كل السلع من موانئ الهند ذاتها قبل أن تصل إليها الحبشة ، وأما سميفع فإنه تعلل بأن امرأ القيس كان قد قتل ابن عمه فهو لا يجد نفسه في موضع يساعد به رجلاً هو يلاحقه بثأر ابن عمه .

يقول بروكربي " PROCOPIUS " فلما استيأس جستنيان من مشايعة سميفع ملك اليمن إلى خطته الرامية إلى توحيد قبائل معد بن عدنان تحت إمرة امرئ القيس حاول أن يصنع ذلك بنفسه وسعى لتنصيب امرئ القيس ملكاً من قبل الروم . وتصديق ذلك في شعر امرئ القيس يصف رحلته إلى بلاط جستنيان لتتميم مراسم تنصيبه وعقد اتفاق المناصرة مع الروم . :-

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله أبر بميثاق وأوفى وأصبـــــرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنه عمداً إلى الروم أنفرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انّا لاحقان بقيصـــرا
فقلت له لا تبكِ عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنقبـــــرا

وكان أن مات في رحلته تلك وقبر بأنقرة (عاصمة تركيا اليوم)

لم يستيأس جستنيان والروم من ورائه ففكر عقب موت أميره المرشح لسيادة قبائل معد بن عدنان أن ينزع ملك اليمن من سميفع فينصب مكانه رجلاً موالياً للروم يستطيع أن يوحد العرب كلها تحت إمرته قبائل معد وقبائل اليمن جميعها ، فوقع اختياره على (أبرهة). كان أبرهة – وهذا ما أغفلته المصادر العربية الاسلامية وحفظه لنا الكاتب الرومانب بروكوبي – مملوكاً لتاجر رومي يعمل في ميناء "أدوليس" على الساحل الإثيوبي الغربي من البحر الأحمر. تسلل أبرهة إلى اليمن واستطاع أن يجمع حوله جموعاً من الحبشة وان يقتل السميفع معلناً نفسه ملكاً على الحبشة . فلما سمع النجاشي بمقتل السميفع واستيلاء أبرهة

عميل الروم ـ وإن كان حبشياً _ على اليمن غضب جداً وبعث بجيش حبشي تحت إمرة "ارباط" للقضاء على حركة أبرهة ، غير أن الحظ كان حليف ابرهة الذي هزم جيش ارباط وقضى على قائده . لم يتوانَ النجاشي في إرسال جيش آخر كان مصيره حين ملاقاته أبهة وقوته مصير سابقه .

في تلك الأثناء مات النجاشي وخلفه ابنه على العرش فخاف إن هو أرسل جيشاً ثالثاً وهزم أن يذهب بهيبة الدولة الحبشية أو أن يقدم أبرهة بعد انتصاراته على غزو الحبشة ذاتها. ومن جانبه أرسل أبرهة سفارة إلى النجاشي الجديد يسترضيه ويعلن ولاءه له ، فيقبل النجاشي عذره وبارك ملك ابرهة على اليمن .

جاءت رسائل إمبراطور الروم إلى أبرهة تترى عقب استيلائه على اليمن يستحثه للعمل على السيطرة على كامل جزيرة العرب ومن ثم مهاجمة الفرس وكان أبرهة في بادئ الأمر وبعدما تمّ له الملك ورضي النجاشي غير متحمس لفكرة الروم لكنه عاد ولعله الطمع في المزيد من السيطرة فحاول السيطرة على العرب إدارياً وثقافياً ،فبنى كنيسة القليس لتكون قبلة دينية للعرب وسعى كما تحدثنا المصادر العربية القديمة لصرف أنظار العرب عن مكة إليها خاصة قبائل معد بن عدنان . ولما لم تجد الوسائل الدعائية الثقافية كثيراً ، شرع أبرهة بحملته العسكرية التي انتهت بكارثة ووبال عُليه وعلى الحبشة . ولم يلبث حلفاؤه أن فقدوا اليمن لصالح " سيف بن ذي يزن " الحميري حليف الفرس ولم يلبث الفرس أن خططوا للإطاحة بسيف . وبالفعل قتلوه ونصبوا والياً فارسياً.فكان مصير سيف بن ذي يزن كمصير سميفع تماماً .

استمر الروم في سعيهم لتنفيذ مخططهم الرامي إلى تنصيب ملك على قبائل معد بن عدنان بغية إلحاق الأذى بأعدائهم الفرس من جهة وتأمين مسالك تجارتهم في البحر الأحمر ، وعبر جزيرة العرب كلها من جهة فحاولوا مرة ثالثة ووقع اختيارهم هذه المرة على رجل من مكة ذاتها ومن بني قصي بن كلاب بيت السيادة في قريش هو عثمان بن الحويرث من أسد بن عبد العزى بن قصي .

وكان عثمان قد تنصر واتصل بقيصر فتوجه الأخير ملكاً على الحجاز ولقب بالبطريق وهو من الألقاب الرومية الدالة على الرئاسة لكن المكيين ثاروا عليه وكان أول من خرج عليه عمه الأسود بن أسد بن عبد العزى صائحاً يا عباد الله بالحجاز إن مكة لقاح _ يعني بلد حر _ لا تدين لملك فخرج عثمان إلى الشام حيث مات مسموماً كحال امريء القيس تماماً .

تلك الفصول المتوالية من رواية سعي الروم لتوحيد قبائل معد بن عدنان تحت إمرة رجل واحد والتي جاء آخرها قبيل مبعث النبي " صلى الله عليه وسلم " بقليل لم تكن خافية على الفرس الذين كان حذرهم بحجم التهديد ، فلما ظهر النبي " صلى الله عليه وسلم " كان مبعثه في ذات السنة التي أعلن فيها كسرى ابرويز الحرب على الروم وهي عام 610 للميلاد والتي انتصروا في أولها في كل ميدان حتى انتزعوا من الروم ارمينية والجزيرة والشام وفلسطين ومصر ولاحقوهم إلى قرطاج ، ثم سيروا الجيوش عبر آسيا الصغرى لمحاصرة القسطنطينية نفسها ومحاولة افتتاحها .. فلم يكن محتملاً عندهم قط أن يظهر خلف خطوطهم تماماً رجل ذو دعوة قد يتاتى عنها أول شيء توحيد قبائل معد بن عدنان التي طالما تهددهم الروم بالسعي لوحدتها على أن الداعية هذه المرة ذو دعوة عالمية جاهر بها الكتاب المنشور على الخلق فهي لن تقف قطعاً في حدود بني معد بن عدنان بل ولا في حدود جزيرة العرب ، فكان حرياً بكسري أن يؤثر عنه ما يرويه صاحب السيرة وغيره من مؤرخي الإسلام وغيره من مؤرخي الإسلام من أنه كتب إلى عامله باليمن باذان قائلاً :-

" إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي فسر إليه فاستتبه فان تاب وإلاّ فابعث إليّ برأسه " وفي بعض الكتب وقفت على أن كسرى ظل يلح على باذان بالخطاب تلو الخطاب وظني أن الأخير كان متردداً أن يصيبه ما أصاب أبرهة إن هو أقدم على غزو مكة والحجاز .

قد ثبت على أي حال أن كسرى كان يسعى للنيل من الدعوة الإسلامية الناشئة بمهاجمتها في مهدها فكان طبيعياً أن يشغل ذلك بال المسلمين وأن يترك أمر تلك الحرب العالمية التي وجدت الدعوة نفسها في ظرفها تنشأ من القرآن مما قد نزل في سورة الروم . وكان الحزم حين بلغت الجيوش الفارسية أدنى الرض بعد فتحها فلسطين كلها والقدس ان يبحث المسلمون عن عمق استراتيجي وظهر يلجأون اليه إن بدرت بادرة مهاجمة .

في ذلك الظرف الدقيق من مجريات الأحداث بعث النبي " صلى الله عليه وسلم " بالطليعة من أصحابه إلى النجاشي ملك الحبشة يلتمس لهم الجوار والملاذ الآمن.

حقيقة الأرض التى قصدها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم

في سيرة ابن اسحق أن أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) قالت : " لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ..." ويروي أحمد بن حنبل بإسناد جيد أن عبد الله بن مسعود قال : " بعثنا رسول الله إلى النجاشي .. " ولا تكاد تجد في المصادر العربية الإسلامية القديمة عنواناً للجهة التي قصدها أصحاب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) سوى هذين اللفظين ، أنها أرض الحبشة وأن ملكها يقال له النجاشي ، لا اسم مدينة ولا بلد هناك . وقد أوقع الناس في لبس غير قليل ما في المصادر العربية الإسلامية من قلة التحديد لأرض الحبشة أو التثبت من اسم النجاشي المذكور وموقعه من سلسلة ملوك الحبشة وظل اللبس والغموض قائمين ما دام الناس معتمدين على المصادر العربية الأولى وحدها .

والذين أتيح لهم النظر في ما سوى المصادر العربية لم يجهدوا أنفسهم في المقابلة والتحري . لذلك رأينا من المناسب هنا أن نقتل هذا الأمر بحثاً بالرجوع إلى المصادر الموثوقة المعاصرة للحدث كلها من عربية ورومية وحبشية ، حتى نحدد على وجه الدقة دار الملك التي قصدوها والكيان السياسي الذي بعث النبي بتلك السفارة إليه ووجد المهاجرون الملاذ الآمن عنده .

لنبدأ بالقصة من بدايتها : أول ذكر للحبشة والنجاشي ملكها تصادفه في السيرة في غزو الحبشة بقيادة النجاشي ملكها لليمن وقتلهم يوسف ذا نواس ملكها . وهي القصة التي سجلتها كتب الروم وقد أوردنا قبلُ رواية بروكوبي —Procopi — المعاصر لتلك الأحداث وفيها تفاصيل لا تجدها في المصادر العربية الإسلامية منها أن (بركوبي) يجزم بأن الغازي لليمن عام 525 ميلادية وقاتل (ذي نواس) هذا ملك " أكسوم" . وقد وجدت في شعر عدي بن زيد العبادي ما يتعلق مع ما يرويه بروكوبي من نسبة ذلك الحدث إلى ملك اكسوم (وعدي معاصر فقد عاش في القرن السادس الميلادي) فقال يبكي صنعاء وملك اليمن بعد غزو الحبشة :

ساقت إليها يد الأقدار جند بني الأحرار فرسانها مراكبها

يوم ينادون آل بربر وآل يكســـــــــوم لا يغلبن هاربها

يعني صيحات الحبشة ــ والعرب يسمونهم بني الأحرار ــ في قتالهم كانت "يا آل بربر " و" يا آل أكسوم أو يكسوم " كما جرت في لهجة عدي بقلب الهمزة ياء وهو جائز كثير في كلام العرب ؛ وذلك لأن جيوش الحبشة قدم بعضها من جهة أكسوم وبعضها من جهة " بربرة " .

فأكسوم هي عاصمة الحبشة القديمة وهي مدينة معروفة في إقليم (تقراي TIGRAY ــ) إلى الجنوب من أسمرا وفيها اعظم كنائس الحبشة وهي المسماة (ماري) ولعلها المعلم الوحيد المذكور باسمه في ثنايا روايات المهاجرين من الصحابة فقد ذكرت أم سلمة وأم حبيبة هذه الكنيسة باسمها وما فيها من بدائع الفن للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

أمّا بربة فهي المدينة المعروفة إلى اليوم شمال الصومال وقد ذكرها التاجر المصري والراهب في ما بعد المسمى كوزمز COSMAS في كتابه : CHRISTIAN TOPOGRAPHY ــ وكان كوزمز قد زار الحبشة عام 522 للميلاد بين يدي غزو النجاشي " كلب" لليمن وجاء فيه "ان بين مدينتي أكسوم وبربرة مسافة بعيدة وانه من عند بربرة يجلب البخور والعطريات وان نواحي بربرة هي في آخر حدود مملكة الحبشة من تلك الجهة "

يوافق كوزموز من الجغرافيين الإسلاميين " اليعقوبي " الذي عاش في القرن الثالث للهجرة في ما كتب :" مملكة النجاشي بلد واسع عظيم البنيان ولهم مدن عظام وساحلهم دهلك وآخر مملكة الحبشة الزنج "

بلاد الزنج في الجغرافيا الإسلامية القديمة تبتدئ من عند كينيا فاليعقوبي يدخل بلاد الصومال ضمن مملكة النجاشي كما ترى ، واذا كان ملك أكسوم باسطاص سلطانه على اليمن من البر الشرقي للبحر الأحمر فانه اشبه ان يبسط سلطانه إلى تخوم بلاد الزنج على الساحل الغربي وقد جزم اليعقوبي بأن (دهلك) هي ساحل

الحبشة أي ميناء الحبشة ودهلك هي أيضاً معروفة اليوم وفي جوار دهلك ميناء (مصوع) .

قد تبين مما أوردناه أعلاه أن الحبشة التي ملكها النجاشي المذكورة في السيرة في شأن غزو اليمن وفي شأن أبرهة إلى هجرة الصحابة هي المملكة التي كانت عاصمتها (أكسوم) وتشمل (ارتريا) و (الصومال) و (إثيوبيا) .

أما كلمة (نجاشي) فهي لقب لكل من ملك تلك البلاد مثل (قيصر) لكل ملك على بلاد الروم وهي كلمة متداولة في اللغة الأمهرية إلى اليوم بذات المعنى وفي لغة التقراي كذلك. وأكثر ما تسمعها اليوم بالشين (غير المنقوطة) لكنها في اللغة الحبشية القديمة تنطق بالشين (المنقوطة) كما في العربية . وتسمى المملكة "منجشة" .

لقب آخر للنجاشي هو (حطي) وربما قيل "حصي" بالصاد وهو متداول أيضاً في اللغات الحبشية الحديثة ، وقديماً كان مستعملاً وهو اللقب الذي يخلعه الكاتب الرومي (بروكوربي) على النجاشي فاتح اليمن . وقد وقع هذا اللقب محرفاً في بعض المصادر العربية إلى " عطية " وظن من أخطأ منهم أنه اسم علم أو الترجمة العربية لكلمة (نجاشي) .

هذان اللفظان (نجاشي) و (حطي) من ألفاظ لغته كقوله للجبل " دبرا " وقوله للصحابة : أنتم "شيوم" بمعنى سادة أو مكرمون تقف كلها شاهدة على أنه كان يتكلم بلسان الحبشة القعصي القديم وهذه الألفاظ محفوظة اليوم في المتداول من كلام التقراي والأمهرة.

نضيف إلى ما كتبنا فوق من تحقيق أمر الجهة التي قصدها الصحابة من شواهد الوثائق الحبشية العملات النقدية الأثرية التي تعود لذلك العهد مقارنة مع القوائم التي سجلت فيها سلاسل ملوك الحبشة من ابتداء أمرها ، وقد وقفنا منها على نسخ عدة . نستطيع القول بأنه ما كل ما فيها دقيق وقد تكون أقرب إلى الخطأ في مواضع وأشبه بالأساطير في ذكر الملوك الأقدمين السابقين ولكنها مع

ذلك مصدر مهم للمقارنة في عهود ما قبيل الميلاد وما بعده وقد تصادف ذكر ملوك فيها مع ذكرهم في مصادر غير حبشية معاصرة كالكتب الرومانية القديمة وأدت بنا هذه المصادفات إلى الايمان بأن تلك القوائم تحتوي على فوائد علمية إن احسن استخدامها وغربلت غربلة جيدة أو قوبلت مقابلة سليمة مع مصادر معاصرة وهو ما سنحاول فعله بمقابلة سلسلة الملوك من لدن (كلب) فاتح اليمن عام 525م وهو مذكور في جميع ما طالعناه من قوائم إلى النجاشي المسمى في القوائم (أرمح) ARMAH والذي كشفت البحوث الآثارية عن عملة معدنية مضروبة باسمه استدل مما فيها من تاريخ أنه كان معاصراً للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

ذهب دارسون غربيون مثل (سير والس بدج- BUDGE) إلى أن أرمح هو النجاشي الذي استقبل وفد الصحابة المهاجرين إلى الحبشة بينما تسميه المصادر الإسلامية (أصحمة) وحاول آخرون الجمع بين الاثنين بأن جعلوا أحدهما الابن والآخر الأب وإن كان أمراً صحيحاً في نفسه لم يطل القول في تحقيقه بل اكتفى كثير من الدارسين بنقل اسم (أصحمة) من المصادر الإسلامية واسم (أرمح) من الموجودات الأثرية وبشهادة الأخيرة والأولى قضي بأنهما معاً عاصراه وكان رائد هذه الفكرة المؤرخ ابن كثير أعطى فكرة كونهما نجاشيان ولم يعرف ابن كثير إلاّ الاسم الأول أعني (أصحمة) لكنه قضى بوجود آخر لكون النبي كتب إليه يدعوه إلى الإسلام قال فإن أحدهما أسلم وصلى عليه النبي حين مات فينبغي أن يكون كتب يدعو إلى الإسلام خليفته ، ولم يعين ابن كثير اسم هذا الخليفة . وظاهر الروايات وخطابات الرسول (ص) أن المسمى (أصحمة) هو الذي استقبل المسلمين أولاً وأنه هو الذي بعث بهم عائدين في السنة السابعة للهجرة وأنه هو الذي أسلم وأنه هو الذي صلى عليه النبي حين مات .

الذي نود بيانه هنا أن قوائم ملوك الحبشة لهذه الحقبة من الزمن أعني القرن السادس للميلاد وحتى بداية الربع الثاني من القرن السابع مقارنة

بالموجودات الأثرية وما في المصادر الإسلامية الأولى – فيها الإفادة لمن تدبر بوجود اسمي (أرمح) و(أصحمة) كليهما في المصادر الإسلامية وفي القوائم الحبشية ومن بينها قد نفيد بأن أرمح قد تولى الملك بعد وفاة أبيه وأن أصحمة هو صاحب القصة مع الصحابة من أولها إلى آخرها وأن أرمح ابنه قد كان جاء بصحبة جعفر بن ابي طالب حين عودته من الحبشة ولقي النبي (ص)وسمع منه على ما سنبينه .

تفيد المصادر الإسلامية الأولى أن النجاشي الذي قصده الصحابة اسمه (أصحمة بن بحر) وهذه النسبة للأب تضيف إلى قائمة بحثنا اسماً رابعاً إلى جانب "كلب " فاتح اليمن و"أصحمة" مستقبل الهجرة وأرمح الذي وجدت عملته وهو " بحر " والد النجاشي أصحمة .

تفيد السير والمصادر الإسلامية أن والد النجاشي (بحر) قد قتل أو مات ابنه (أصحمة) صغير وأنه تولى الملك بعد موت بحر عم (أصحمة) ، وأن العم ما لبث أن مات بعد أن تخلص من (أصحمة) بالبيع فلما هلك العم عمد الحبشة إلى أبنائه يولونهم واحداً تلو الآخر.

وهذا يعني أن بين (بحر) و (أصحمة) عدد من الملوك . وإذا كان (أصحمة) معاصراً لمبعث النبي (صلى الله عليه سلم) فينبغي أن يكون بين أبيه بحر وبين النجاشي (كلب) جده الأعلى وفاتح اليمن عدد من الملوك ايضاً. وإذا كان (أرمح) ابن النجاشي ومتقلد الملك بعده فينبغي ان يكون يليه مباشرة في القوائم . هذا التوقع هو ما وجدته تماماً في عدد من القوائم التي راجعتها والتي تذكر بعد كلب عدداً من الملوك يليهم اسم "بحر" .

وكيفما اختلت القوائم فانها تذكر قبل "أرمح" مباشرة من اسمه "اصبحة " وهو مذكور في بعضها باسم " أصفر" .

لا يخفى أن اسم (أصبحة) والذي نقل إلى العربية قد أدركه القلب والإبدال ما يدرك الاسماء الأعجمية كثيراً ، عليه نفهم أن (أصبحة) صار إلى (أصمحة) ثم إلى (أصحمة) .

هذا والأصحم في العربية يعني الأصفر ولسان الحبشة على عهد الهجرة المعروف بالقعصي هو من أقرب الألسنة إلى العربية فلا عجب أن نجد اسم هذا الملك مرة (أصبحة) ومرة (أصفرة) في قوائم ملوك الحبشة ومرة (مصفرة)

القرآن فى معية أصحاب السفاره الاولى

في هذا المقام نستعرض الحصيلة من القرآن التي كانت نزلت من حين البعثة ، حتى أمر النبي ثلثي أصحابه المؤمنين بدعوته أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وسورتان ارتبطتا ارتباطاً وثيقاً بذلك الحدث : وهو كما سنراه إن شاء الله ــ باب من تاريخ القرآن لم يكتب حتى اليوم ، ولا تكاد تجد في شئ من الدراسات التي تناولت هجرة الحبشة ربطاً لها بشئ من القرآن . وقد كنا منذ أول مقال كتبناه في هذه السلسلة بينا الصلة بين ذلك الحدث الخطير وبين نزول سورة الروم من جهة وبين تاريخ التحرك إلى الحبشة وبين انتصار الفرس على الروم حسب ما استخلصناه من السورة .

قد ذكرنا من قبل ما نؤكده ههنا من أن حديث الهجرة إلى الحبشة فيه مفتاح فهم السيرة النبوية بأسرها . واذا كان كذلك فإن القرآن أوثق المصادر . وأهمها ما يتعلق باحداث السيرة وما كان حدث خطير كهذا يمر دون أن ينزل فيه شئ من القرآن . وقد وفقنا بحمد الله للكشف عن ما نزل في شأن هجرة الحبشة على ما سنبينه .

توثق سورة الروم لتاريخ نزولها توثيقاً دقيقاً بما افتتحت به من الإشارة إلى حادثة مؤرخة في التوراريخ العالمية لذلك الزمان وهي حادثة تغلب الجيوش الفارسية على الرومية في حرب القدس في ما بين عامي 614 و 615 للميلاد على ما أوضحناه تفصيلاً من قبل . متخذين ذلك التاريخ معلماً . وبمراجعة أسبقيات النزول للسور القرآنية نجد أنه قد نزل تباعاً اثنتان وثمانون سورة . ولم نكتفِ في الكشف عن ذلك وتحقيقه بما ورد في الروايات التي ذكر فيها ترتيب النزول حيث راجعناه على عشرات الأحاديث الصحيحة المروية التي ربطت بين الحقبة الأولى من عمر الدعوة وبين الشئ بعد الشئ من القرآن .

من ذلك على سبيل المثال قول الصحابي عبد الله بن مسعود ــ "وكان ممَن هاجر إلى الحبشة وعاد منها إلى المدينة المنورة "سورة الاسراء والكهف ومريم وطه والانبياء هي من تلادي وهن من العتاق الأول "

بمعنى قوله هن من "تلادي" أنهن من أول ما حفظ من القرآن وأردف ذلك بما انهن من أقدم ما أنزل منه إذ يقول :" هن من العتاق الأول أي القديمات النزول ".

قال ابن مسعود أيضاً يذكر زيد بن ثابت ناسخ المصاحف لعثمان بن عفان " قد حفظت من فم رسول الله "صلى الله عليه وسلم" سبعين سورة وان زيداً لغلام يلعب مع الغلمان " وفي زواية وان زيداً لفي صلب رجل مشرك ــ يعني لم يولد بعد . وكان عمر زيد بن ثابت حين هاجر النبي إلى المدينة نحو أحد عشر عاماً . فبمقارنة هذه السن مع قول ابن مسعود السابق إضافة إلى قوله : "رأيتني سادس ستة ليس على وجه الأرض مسلم غيرنا " ندرك أن عبد الله بن مسعود حفظ تلك السور السبعين قبل خروجه مهاجراً إلى الحبشة.

قد يبدو مدهشاً ــ إذا تذكرنا أن الخروج إلى الحبشة كان في السنة الثانية لإشهار الدعوة ــ أن نجد أنه قد نزل في هذه الحقبة المعدودة الأشهر ــ زهاء الثمانين سورة من القرآن وإنما قلت إن المدة الزمنية لتلقي هذا العدد الكبير من السور القرآنية كان من ما يعد بالشهور لأن نزول سورة الروم المتزامنة في نزولها مع الهجرة إلى الحبشة كان في السنة الخامسة للنبوة وهي السنة الثانية لإعلان الدعوة وهذا التفصيل التأريخي يتماشى مع ما ذكر في شأن نزول القرآن أنه نزل أول ما نزل صدر سورة " اقرأ باسم ربك الذي خلق " وهي الآيات التي طالع بها النبي ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوجه حين ذهب إليه وقال له ورقة إن هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى. في سياق ذلك الخبر أنه لم يلبث ورقة بعد ذلك أن توفى وكانت فترة الوحي في أصح الأحوال قريباً من ثلاث سنوات ثم نزلت سورة " المدثر" وفيها أمر صريح بإعلان الدعوة "يا أيها المدثر قم فأنذر" وفي الرواية قال "ثم حمي الوحي وتتابع " بعد نزول المدثر .

انظر إلى هذين اللفظين " حمي" و "تتابع " وفي رواية "وتواتر " يؤكد بهما الرواي ترادف النزول واسعاً من غير سكتة وهو كما ترى ما يوضحه أكثر ما كشفنا عنه خلال العامين فقط الذين أعقبا نزول المدثر كان قد نزل جل القرآن المكي أو كله وتلك هي الحصيلة التي احتملها معهم المهاجرون إلى الحبشة بعدما صقلوا عقولهم بما فيها وأحيوا نفوسهم بمعانيها . فيها القول مفصل عن العقيدة الإسلامية وفيها عرض عقائد الأمم السابقة والمعاصرة لنزول الدعوة . وبيان ما فيها ، وفيها ذكر ما لحق أهل الكتاب الأول من ابتعاد عن جذر العقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد .

قد أخطأ ههنا بعض الدارسين من الغربيين حين ظنوا أنه ما نزل بهذه الفترة من القرآن إلاّ نحو عشرين سورة فقط من القرآن . دون ذلك مور MUER في كتابه " LIFE OF MOHAMMED – سيرة محمد" وقال بزعمه ونقلاً عن بعض من سبقه من الدارسين الغربيين أنه لم يتعرض القرآن لمناقشة أهل الكتاب إلاّ بعد الهجرة إلى المدينة ومساكنة اليهود هنالك. أما الكتب العربية الإسلامية فإنها تتجه إلى أية دراسة إحصائية لما نزل لهذه الفترة أو تربطه بتاريخ .

كان جلياً إذن أن العقيدة الإسلامية في شأن المسيح عليه السلام مع سائر قصص الأنبياء على ما هي عليه في القرآن كانت من بين ما احتملوه معهم إلى بلاط النجاشي وإلى الحبشة . وقد روى أصحاب السيرة أن ما قرئ في مجلس النجاشي سورة مريم وسورة الروم وسورة العنكبوت .

السورتان الأخيرتان من الفقرة السابقة اعني الروم والعنكبوت هما اللتان ارتبطتا ارتباطاً وثيقاً بحادثة الهجرة إلى الحبشة .أما الروم فإنها بدأت بذكر انتصار العرب على الروم في أدنى الأرض – وهو ما بينا من قبل– وبينت أن الروم سيكتب لهم النصر على الفرس في بضع سنين .

"بضع سنين " يعني ما بين ثلاث إلى تسع وقد كان الروم خسروا أولاً معاركهم وأرضهم تباعاً أمام زحف الفرس من ابتداء الحرب عام 624 للميلاد حتى احرزوا في هجمة مرتدة قوية نصراً ساحقاً على الفرس .. وقد تزامن ذلك مع انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى . وهذا هو المعنى المقصود في الآية التي ذكرت أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين إذ جاء فيها :" ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم " .

قد كان تبادر إلى أذهان بعض من نظر في تفسير صدر سورة الروم أن قوله:" ويومئذ يفرح المؤمنون " يعني بانتصار الروم على الفرس . وتأولوا ذلك بظنهم أن المسلمين كانوا يستحبون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم وأن المشركين كانوا يستحبون انتصار الفرس لأنهم كانوا مثلهم مشركين. لكن بعض المفسرين من جيل الصحابة تنبه إلى الموافقة الزمنية بين انتصار المسلمين من مشركي مكة في واقعة بدر الكبرى . فتلك فرحتهم بنصر الله . وقد جاء عقبه في القرآن " وعد الله لا يخلف الله وعده " وهو ما صحت به السورة كلها حيث نجد في آخـــرها : " فاصبروا إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون"

مع من كان الوعد بالنصر مع المسلمين ــ نعتقد ــ أم مع الروم . السور نفسها تشير إلى أن وراء ظاهر الأحداث سراً لمن تدبروا . وما دام سراً فقد روي بما يفهمه اللبيب وإن كانت الإشارة إليه واردة روي بلهجة تعوز الدبلوماسي المحنك بنصر الله :" ينصر الله من يشاء .." "وعد الله لا يخلف الله وعده" .. " ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .." أتعلمون ظاهراً في الحياة الدنيا " .

ربما استعدّ المسلمون لهزيمة الفرس الذين كانوا يشكلون تهديداً عسكرياً مباشراً للدعوة الناشئة . أما الروم فان القرآن يشير إلى أن المسلمين ليسوا منهم في شئ " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شئ ".

لا يتسع هذا المقال لسرد جميع ما أعددناه من الكلام على سورة الروم وأسرارها ولعل قارئاً لو رجع إليها بعدما ألمحنا إليه وتدبرها آية آية أن يقف منها على ما أومأنا إليه .

أمّا العنكبوت فإنها فيما ذكر في الروايات كان نزولها بعد الروم مباشرة وأنها كانت مما حمل إلى أرض الحبشة وليس بين نزول الروم والخروج الفعلي إلى أرض الحبشة إلاّ فترة الإعداد النفسي والحسي للهجرة . وهذا هو ما تعالجه السورة من أولها إلى آخرها .

كانت الهجرة أمراً صعباً على النفوس أن يترك المرء وطنه وأهله وأن يقدم على العيش في المجهول وقد تراود المرء بين يدي فكرة الغربة دائماً فكرة أن يموت هناك غريباً . و إن انضاف إلى ذلك أن الخروج اضطراري قد حمل عليه الإنسان حملاً كانت المرارة أشد . كل تلك المعاني بلا شك تخالج النفوس وتعبر الأذهان والصحابة يتهيأون للخروج. اقرأ معي بعد معايشة أجواء الهجرة بكل جوانبها سورة العنكبوت التي هي سورة الهجرة إلى الحبشة بحق .

نبتدئ بالحديث بالفتنة وهي مفردة تلاقينا في القرآن في خروج موسى خائفاً من مصير يترقب "وفتناك فتوناً " ومع ذكر الفتنة ههنا حض للصحابة على الإقدام " حسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون " إلى آخر ما تجده من ذلك

ثم فيها صراحة " يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون " وهي مفردة قد ربطت بالهجرة " أعني ان أرضي واسعة " في آية سورة النساء "... قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها " وجاء عقبه " كل نفس ذائقة الموت " إذ كان ما يسيطر على مشاعر المخرج المغترب والمهاجر المخافة من أن يموت في دار الغربة لحرص كل إنسان أن يموت إذا حضر أجله بين الآخرين من أهله وأحبائه ويحضرني ههنا قول امرئ القيس حين خرج باختياره إلى بلاد الروم :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انّا لاحقان بقيصـــرا

فقلت له لا تبكِ عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنقبـــــــرا

لو ذهبنا نستعرض ما تجيش به النفس بين يدي الاقدام على شئ كهجر الأوطان في زمن لم يكن العالم كالبلدة الواحدة بما فيه من وسائل الاتصال والنقل الحديث ، وأن الغائب في حكم الميت حتى يعود لعلمنا كيف كان أمراً صعباً عليهم ركوب الغربة وازددنا عمقاً في فهم الآيات من هذه السورة .

جاء في الروايات أن عثمان بن عفان لما خرج ومعه رقية بنت النبي " صلى الله عليه وسلم " ابطأ على رسول الله خبرهما فقدمت من أرض الحبشة امرأة قرشية " وكان القرشيون يترددون على بلاد الحبشة " فقالت لقد رأيت صهرك ــ تعني عثمان ــ وامرأته وقد ركب على حمار من هذه الدبابة وهو يعود بها فقال : فليحفظهما الله .. ان عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط .

انظر إلى هذه العبارة الأخيرة " ان عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط " لم عبر ذهن النبي " صلى الله عليه وسلم " خروج لوط مهاجراً حين ذكر امر عثمان ورقية ان لوطاً كان فيما ذكر ابن اخت ابراهيم وكان النبي صلى الله عليه وسلم خال عثمان بن عفان (لعل الكثيرين لا يعرفون ذلك) ومع هذه المزاحمة الذهنية لفكرة الهجرة والخؤولة نجد الآية الكريمة من سورة العنكبوت في ذكر ابراهيم " فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ..." حتى التبس على بعض مفسريها من المعني بقوله : " وقال إني مهاجر إلى ربي ..." أهو لوط أم ابراهيم .

السورة تسرد في ايجاز عدد من الأنبياء نوح وابراهيم ولوط وشعيب رابطة بين كل أحد منهم وبين فكرة الخروج من جهة وبين ما حلّ بالكثيرين من قومهم من جهة (جاءت البشارة بالفتح مع الأمر بركوب شدة الهجرة) "أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقون"

في ثنايا قصة نوح إشارة إلى كناية قد يكون مدلولها عن ما حدث في الهجرة وخروجهم إلى ساحل البحر حيث ركبوا سفينة حملتهم إلى أرض الحبشة

وذلك قوله : " فأنجيناه وأصحاب السفينة " الحديث عن نوح والسفينة هي لا شك سفينته وكله إشارة كالبشارة .

القوم مقدمون على بلد يدين بالنصرانية ملكه وكثير من أهله من أهل الكتاب ،وهم وافقوا المسلمين في كثير من ما يعتقدون وقد يخالفونهم في أشياء من أخطرها اعتقاد النصارى في المسيح واعتقاد المسلمين فيه فكان حرياً ان نجد في سورة العنكبوت سورة الهجرة هذه " ولا تجادلون أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم " .

قد وقع نقاش بالفعل طويل وجدل بالحسنى كان ثمرته أن الملك وناساً من قومه الحبشة قبلوا العقيدة الإسلامية وكان من نتاجه أن أحد المهاجرين مال إلى النصرانية وهو عبد الله بن جحش .

الغربة مظنة أخيلة الجهالة وتكشف دواخل النفس الأمارة بالسوء . وفي المثل العامي المعروف في السودان " بلداً ما بلدك أمشي فيه عريان " إذ يسقط الغريب من حسابه كثيراً من السلوك الأديب الذي كان إنّما يفعله مراعاة لقومه ، وهي بالتالي مظنة للضعف البشري لمن لم يحصن نفسه جيداً فكان حريّاً أن نجد في السورة الوصية بهذا الحصن " اتل ما اوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون " .
ما كان حدث عظيم في التاريخ الاسلامي كهجرة الحبشة أن تمر دون أن يرتبط بشئ من القرآن وقد كشفنا بالتحقيق المنهجي العلمي ان سورة العنكبوت هي السورة التي نزلت في ثنايا أجواء الهجرة فهي فواحة بعبقها وقد كان قال أكثر العلماء في أوثق الأقوال إن السورة كلها مكيّة إلاّ أن غيبة العلمَ باتصالها بحادث الهجرة في أكثر الدراسات المتداولة وبالتالي فوات مغزى الآيات الأولى منها ومغزى ما فيها من إشارات ارتباط بالهجرة جعل البعض يعتقدون في تلك الآيات أنها مدنية أعني المتعلقة بالفتنة وبالجهاد ، والنفاق ، والصواب ما قالت به الأكثرية أيدناه بما يبرر ذكر تلك المعاني فيها .

طبيعة السفاره الاولى

الانطباع الذي ربما خرج به قارئ السيرة موهوماً بظاهر السياق أن النجاشي ملك الحبشة لم يحط علماً بأمر هجرة أصحاب النبي محمد إلى أرضه ونزول ثلاثة وثمانين رجلاً مع بعضهم أزواجهم وذراريهم إلاّ بعد ما جاء سفراْء قريش من المشركين يطالبون بردّهم . وربما قوى ذلك الانطباع في السيرة من ظاهر خطاب وفد قريش للنجاشي ورده عليهم وكذلك يأتيك الانطباع أنهم حين عاد بعضهم إلى مكة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة إنما كان ذلك بمحض اختيار منهم لأمر سمعوه أن أهل مكة قد أسلموا كما يروى في السير في خبر فيه من الاشكال ما فيه .

الذي نريد أن نقرره ههنا أن خروجهم أولاً مثلما كان بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك عودتهم أخيراً بعد خيبر حتى أرسل فيهم خطاب استدعاء فإن عودتهم فيما بين ذلك لم تكن إلاً بأمر منه . والذي نريد أن نقرره ههنا أنه ما كان ليخاطر النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال ثلثي الجماعة المسلمة يومئذ إلى دار غربة وراء البحر دون أن يكون قد تلقى ضمان الجوار والحماية قبل ذلك من السلطات الحبشية تماماً مثلما فعل حين همّ بالهجرة وبالأمر بها إلى المدينة فإنه قد أخذ عهداً من الأوس والخزرج أن يحموه ويحموا أصحابه مما يحمون به أنفسهم وذراريهم .

هذا الجوار الحبشي الذي حصلوا عليه ظاهر في سياق رواية أم سلمة وكانت من المهاجرين : " لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار ، النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين " . فهذا يدلك أن حصولهم على الجوار كان سابقاً لإرسال قريش سفرائها يطالبو ن بعودتهم وأن ما دار بعد ذلك في مجلس النجاشي من إعلانه حماية المسلمين بأرضه كان إعلاماً وتوكيداً لأمر قد كان أبرمه من ذي قبل. وفي صدر هذا الفهم ندرك طبيعة إرسال

النبي الصحابة إلى الهجرة وكيف بدأ أولاً بارسال فئة صغيرة العدد مؤلفة من أحد عشر رجلاً وأربع من النسوة .

خرجت تلك "الطليعة " كما يمكن أن نسميها بحق المؤلفة من أحد عشر رجلاً وأربع نسوة في شهر رجب في السنة الخامسة للنبوة كما بيّنا فأقاموا بالحبشة في شعبان ورمضان ورجعوا في شوال . فهي كما ترى مدة مسافر في أمر يقضيه أكثر منها مدة مهاجر مقيم وإن سميت في عرف المسلمين الأوائل الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ولم تكد تعود تلك الطليعة التي خرجت إلى الحبشة متسللة سراً حتى أمر النبي العدد الأكثر من أصحابه بالخروج وعاد معهم هؤلاء الأحد عشر رجلاً والنسوة الأربع فماذا عنى ذلك .

جرت أخلاقيات العمل الدبلوماسي من قديم على أن لا يفشي السفير مضمون الرسالة التي حملها . وشواهد قدم تلك الأخلاقيات كثيرة عندنا لا يتسع المجال للتمثيل بها ههنا . وكان ــ بطبيعة الحال ــ سفراء النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك . ومع تقادم العهد وتضافر الحوداث وبكور موت سفراء الحبشة بالنسبة لعهد جمع الرواية وتدوينها انطمرت بعض الحقائق التي لا يجليها إلاّ منهاج البحث العلمي الصادق . وأنت إذا نظرت ما تمّ آخر الأمر استدللت به على ما أبرم من أوله . أعني أن النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد بقيّة الصحابة المقيمن بأرض الحبشة العودة إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة كتب إلى النجاشي ملك الحبشة ذلك الأمر . وهذا الصنع انما يسمى في الأعراف والتقاليد الدبلوماسية خطاب الاستدعاء وخطاب نهاية البعثة الذي يرسل إلى سلطان الدولة الموجودة فيها البعثة.

إذا كان ختام الأمر يتطلب استدعاء فإنه قد شمل أيضاً تكريماً من ملك الحبشة للبعثة خلع عليهم وأهداهم وحملهم على حسابه . وأمر آخر يقف شاهداً قوياً على كونها بعثة دبلوماسية بالمقام الأول هو أنه ردّ بمثلها وأرسل معهم وفداً

حبشياً بقيادة ابنه (أرمح) الذي تولى الملك بعده . وعلى ذلك كانت تجري التقاليد الدبلوماسية قديماً لا يحمل خطاب الرد للسفير الذي جاء أولاً من السلطة الأجنبية بل يحما، سفيراً وطنياً يذهب صحبة السفير الجائي من البلاد الأخرى . وهذا أمر جلي لمن راجع وقائع العمل الدبلوماسي في العالم القديم يرد على السفارة بسفارة

لقد كانت سفارة النجاشي التي بعث بها صحبة جعفر بن أبي طالب في مستوى سفارة النبي صلى الله عليه وسلم التي بعث بها اليه من حيث المقابلة العددية ومن حيث صلة قيادة البعثة بصاحب السلطان على ما سوف نبينه .

أرسل النبي أولاً ابنته رقية صحبة الوفد الأول ولم يكن له ولد ذكر كما هو معلوم وعزز إرسال رقية بإرسال جعفر . وهذا أمر ينبغي أن نقرأه مقروناً بإرساله سورة "براءة" إلى مشركي العرب كافة تقرأ عليهم في موسم الحج في السنة التي كان فيها أبو بكر أميراً على الحج من قبله لكنه أرسل خلفه على بن ابي طالب مكلفاً أن يقرأ رسالة النبي على العرب ولما سأل ابو بكر عن ذلك قال له النبي اني أمرت أن ابلغ هذا الأمر أنا شخصياً أو رجل من أهل بيتي .

كذلك ههنا أرسل ابنته شخصياً لأخذ العهد بالجوار وعثمان زوجها في منزلة ابن اخته فكان طبيعياً في العرف الدبلوماسي أن يرسل النجاشي ابنه شخصياً ارمح وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه جعفر بن أبي طالب سفيراً مقيماً لأربعة عشر عاماً وأرسل النجاشي في بعثة الرد ابن اخيه (ذونخر) وقد أقام ذونخر سنين عدداً فهذا كما يسمى بحق "RECIPROCATION" .

يقودنا موقع رقية رضي الله عنها في هذه البعثة إلى ذكر دور النساء فيها وفي العمل الإسلامي في تلك الحقبة قبل أن يتعلم بعض من عميت عليه حقائق الأمور هذه التفرقة الحادة بين الجنسين وقبل أن يغيب في الأدبيات التاريخية وفي المكتبة العربية القديمة تفصيل سير النساء وجوهر أدوارهن في العمل حتى بدا وكأنهن كن تبعاً لأزواجهن في الخروج لا غير. ولكن من يدقق في دراسة المرويات يجد أنه كان لأولئك النسوة رأي مستقل وكان عندهن من قوة الشخصية

والثقة بالنفس ما أهلهن للقيام بما قمن به من أعمال ملموسة الفائدة في مناصرة الدعوة الوليدة بدءاً بخديجة زوج النبي التي كانت أول إنسان يطالعه بأمر الوحي وفوق إيمانها به أول الناس كانت أول من ثبته وطمأنه . وسمية التي ظلت حتى الموت متمسكة بموقفها ، وأم حبيبة التي فارقت برأيها المستقل دين أبيها أبي سفيان واخوتها وأمها فلما تنصر زوجها بأرض الحبشة ظلّت متمسكة بمعزل عن الأب والزوج بموقفها .

كان ممن أسلم قديماً وخرج مهاجراً إلى الحبشة فيما ذكر أبو إسحق وغيره من أصحاب السير عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية معه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية الكنانية وأخوه خالد بن سعيد معه امرأته أمينة بنت خلف الخزاعية فقال أخوها أبان بن سعيد يعاتبها شعراً :

أطاعا بنا أمر النساء فأصبحا ..يعينان من أصحابنا من نكايد

فكان في تقديره أن أخويه تبعا امرأتيهما في الإسلام والهجرة أكثر من أن تكون الزوجتان تبعتا زوجيهما . فهذا ونحوه يدلك على قوة مشاركة النساء وبرأي مستقل وثقة بالنفس تامة .

ثم كان من حديث النجاشي بعد جواره هؤلاء الصحابة أن قال " أنتم شيوم " ومعناه في كلام الحبشة "سادة" أو ــ Excellence ــ كما في الخطاب الدبلوماسي ثم وضع عقوبة على من عاملهم بأدنى سوء فقال : من سبكم غرم . أعطاهم إذن الجوار والأمان واللقب اللائق بمبعوث كريم ووضع عقوبة على من خرق شيئاً من ذلك من رعاياه وغيرهم فهذا في العرف الدبلوماسي هو الحصانة بعينها وسائر ما يخص به المبعوث من عناية السلطة المبعوث إليها . انظر إلى هذا الأمر في كل شكلياته فإنك واجد فيه صفات البعثة الدبلوماسية

كان الوفد فيه المقدمون في علم القرآن وقد بينا الحصيلة التي نزلت لذلك العهد ويبدو أنهم برزوا في القرآن وفي فن الدعوة والجدل بالحسنى والإقناع لأنه عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة ورأيناه كما

يقال " سحب" بعض أعضاء هذه البعثة الحبشية فعادوا إلى مكة حيث مكثوا قليلاً ثم توجهوا إلى المدينة مثل مصعب بن عمير وأبي سلمة ومنهم من ذهب من الحبشة إلى المدينة رأساً كعبد الله بن مسعود .

كان مصعب يقال له في المدينة المقرئ بذلك اشتهر بينهم لما كان يعلمهم ويقرئهم . وجاء في تلك السير أن وفداً كبيراً من نصارى اليمن قدموا مكة بعد ما لحقوا جعفراً بالحبشة وسمعوا عنه ليقابلوا النبي صلى الله عليه وسلم . فواضح أن هذه البعثة كانت بعثة دعوة ونشر للمعرفة العلمية القرآنية أيضاً . وهذا باب من النشاط تغطيه السفارات الحديثة وتختص به الملحقيات الثقافية ، غير أن جانباً خطيراً من تلك البعثة كان هو المتعلق بالبعد السياسي الاستراتيجي وقد كنا في أول مقالنا هذا أشرنا إلى أن ما حظيت به تلك السفارة من نجاح وما احدثته من أثر واسع عميق في بعدي الزمان والمكان ولا نظير له في تاريخ العمل الدبلوماسي فإنها وضعت الخطى الأولى والثابتة في رسم معالم الخريطة التي بنى عليها الكيان المادي للعمل الإسلامي كله .

. أما فيما يتعلق بالتوافق الزماني فإنه لما انتصر الروم على الفرس كما ذكرنا اتفق في ذات الزمان أن انتصر المسلمون على المكيين في بدر . ثم استعان الفرس بأحلافهم من الترك وأعادوا الكرة فأحكموا الحصار على القسطنطينية وقد وجدنا ذلك متزامناً مع حصار قريش وأحلافها للمسلمين في غزوة الخندق .

ثم كان أن تابع الروم انتصاراتهم حتى ردوا الفرس إلى ديارهم وتابعوهم حتى قاربوا عاصمته المدائن عند ذلك اغتال ابن كسرى أباه وتقلد الملك مكانه وكان أول قرار اتخذه هو طلب الصلح مع الروم فاستجاب الروم وقد اتفق اتفاقاً مدهشاً زمان توقيع معاهدة الصلح بين الفرس والروم بالقرب من المدائن مع معاهدة الصلح بين المسلمين ومشركي مكة في الحديبية بالقرب من مكة .

بعدها نزلت سورة الفتح " إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً " وإن كان ظاهر المعاهدة يبرز تنازلات كبيرة من الجانب المسلم . ولما استقر ابن كسرى في الحكم كاتب واليه في اليمن قائلاً : " انظر الرجل الذي كتب اليك أبي في شأنه مراراً فلا تهجه علىّ " يريد الرسول صلى الله عليه وسلم .

إثر ذلك كاتب النبي ملوك الأرض مشهراً دعوته لهم باتباع الإسلام رسمياً كسرى وقيصر وسائر الملوك .

ملاحظة أخرى أنه حتى ذلك الوقت كانت مغازيه وهو بالمدينة لا تتجه شمالاً فلما استبان أمر الحرب وظهرت هزيمة الفرس وانحسارهم عن الشام اتجهت الغزوات شمالاً ناحية خيبر ودومة الجندل على الأطراف الغربية من بلاد الروم وهناك أرسل في طلب عودة المقيمين بالحبشة لأربعة عشر عاماً جعفر بن أبي طالب وأصحابه فوافوه وقد افتتح خيبر .

لم يكد جعفر أن يصل المدينة ويستقر فيها قليلاً حتى بعث إلى أرض الروم كشأن الذين قدموا قبله من مهاجري الحبشة إلى مكة إذ لم يستقروا بها قليلاً حتى بعثوا إلى المدينة .

إن من تبع سير المبعوثين إلى الحبشة ليجد فيها السعي الدؤوب في الدعوة وفي مناصرة التحرك الإسلامي في كل ميدان مع الاستمساك الشديد بالموقف .

كان مصعب بن عمير يحمل لواء المسلمين يوم بدر ولم يفارقه حتى كاد حتى قطع إرباً إرباً بأسياف الأعداء وكان جعفر يحمل اللواء في مؤتة حتى قطع إرباً إرباً .

هل فيما ذكرناه مدخل لدراستهم عن كثب والتعرّف على طبيعة استعدادهم العلمي والنفسي فإن أكثرهم يقلّ ذكرهم .